داغستان واليمـــن

بقلم ـ الأكاديمي ، البروفسور
اغناطيوس كراجكوفسكي

توطئـــة المترجم :

[يعتبر كراجكوفسكي زعيم المدرسة السوفيتيـــة في الاستشـراق والاستعراب · وقد اشغل مكانة لايدانيها فيه أحـــد في علم الاستعراب العالمي · كما ان دراساته العربية من أهم وأقوم الدراسات العلمية المعتمدة في عصرنا هذا · وقد ترك مجلدات كثيرة من اعماله القيمة ، اختير منهـــا للنشر ستة مجلدات في غاية الاهمية · كما ان كراجكوفسكي مـــاجل الريحاني وسواه وكتب بالعربية كثيرا من بحوثه ، وحل أمدا طويلا مـر حياته في الاقطار العربية · وتعتبر دراسته التي نترجمها ، هنا ، خصيصا لمجلة « الترجمة » (اصدار خاص لمجلة كلية الاداب) من أهم سلسلـــة دراساته في تأثير الثقافة العربية في القفقاس الشمالي · وقد أثبتنا هوامش المؤلف في ختام الترجمة ـ المترجم] ·

*

لقد توطدت في النصف الاول من القرن التاسع عشر ، في داغستان ، ظاهرة مهمة من حيث المعنى اللغوي والادبي · فقد تواجدت في الاستعمال اليومي في الحياة عديد من اللغات المحلية المختلفة ، التي لم يكن لها كتابة ،

ولم تتلق صياغة أدبية · أما اللغة المكتوبة المتعارف عليها والمعمول بها ، والاساسية بل والوحيدة غالبا ، فقد كانت هي اللغة العربية الفصحى ·· فبها كانت تتم المراسلات الادارية ـ العملية ، كما كانت مدعومة بالتقاليد المرعية ، وفيها أبدعت الكتابة المحلية سواء بشكلها النثري أم بشكلها الشعري · وبالطبع ، فان مثل هذا الوضع الذي تمتعت به اللغة العربية لم يترسخ فجأة وفي الحال · ومع ذلك فان مابذل من أجل ايضاح مصادر هذا التأثير والتوطد التدريجي لازال قليلا لحد الآن ·

ولاجل هذا ، فان من الضروري القيام بالدراسة النظامية لحجم التراث والتقاليد الأدبية العربية في داغستان ، أستنادا الى المؤلفات العربية التى ذاعت هنا ، وخصوصا تلك التي أبدعت محليا · ويمكن القول ان دراسة الشواهد نفسها تأتي بالكثير في هذا الباب ، غير ان هذا الأمر لم يبدأ بعد · وريثما يتم هذا ، يتعين علينا الاكتفاء بالمعطيات الضئيلة للمصادر الداغستانية عن الصلة بهذا القطر « الاسلامي » أو ذاك ، وخصوصا عن الصلة بالاقطار العربية · وعادة ، فان هذه المعطيات أحادية الجانب ولكنها تظفر أحيانا بالتأكيدات من الجانب المقابل « غير الداغستانى » واذ ذاك تتألق هي بنور غير متوقع وتكتسب أهمية كبيرة · ان احدى هذه الحالات ، التي اتضحت ، غير بعيد ، هي التى منحتنا المسوغ لكلمتنا هذه ·

ان التراث والتقاليد الادبية المحلية لم تذخر شاهدا عن المرحلة القديمة لانتشار التأثير العربي في داغستان ، بل هي على العكس ، تصر على ان هذا التأثير لم يظهر أبعد من نهاية القرن السابع عشر · وانها لمميزة ، بهذا الخصوص ، شهادة من هو يكاد يكون أفضل وآخر عارف بهذه التقاليد ، نعني به حسين القادري (١٨٣٤ـ١٩١٠) · ففي عمله الشهير « آثار داغستان » ، الذي قيمه ف·ف · بارتولد (١) تقييما رفيعا للغاية ،

أكد هو ، بالمناسبة ، انه ليست ثمة في أيما مدينة أو قريـــة في داغستان آثار لمخطوطات قديمة ، وانه بعد الألف الاول من الهجرة لم تكن أيمـــا مكتبة (٢) . وعلى أساس الملاحظات والحواشي المختلفة في المخطوطات ، يقرر هو ان اكثرية هذه المخطوطات كانت قد جمعت وكتبت في « الحقب الأخيرة » ، وعلى نحو أساس : في بداية القرن الثاني عشر الهجري (أي في وقت لايتاخر عن ١٦٩٠ ميلادية) .

ومن المهم أيضا بحث الاشارة الثانية التي يقدمها القادري . فمـن الامثلة التي يوردها هنا يتضح ان تأثير العلم العربي التقليدي قد بلـــغ داغستان ، ليس بذات القدر من تركيا (الامر الذي يبدو أكثر منطقية مـن حيث الاعتبارات السياسية) ، بالقدر الذي مضى به ، على نحو مباشر ، من الاقطار العربية ، وبالمناسبة : ليس فقط تحت تأثير الحج ، بل وبفضـل الرحلات الكبيرة والتأثير المباشر لبعض الاشخاص . فان العالم الداغستاني الاول ، الذي نشر « العلوم والفنون » ، هنا ، هو الذي يسميه القادري : محمد بن موسى قودوطلينسكي ، المرتحل في مصر ، والحجاز ، واليمن . وقد درس هذا في داغستان ، أمدا طويلا ، ثم نزل حلب ، حيث وافـاه الأجل حوالي العام ١١٢٠ هجرية /١٠٧٨ ميلادية (٣) . ويورد القادري ان الشيخ صالح اليمني كان أحد معلميه ، وقد ترك فيه تأثـيرا قويا . ويفسر تأثيره في ان محمد بن موسى ، متبعا في قضايا العقيدة طريقـــة الأشعري (٤) ، وفي قواعد الفقه مدرسة الشافعي (٥) ، ظل يعتبر نفسه غير مرتبط بهما ، ولكنه ، على طريقة الشيخ صالح ، لاذ بالدراسة المستقلـــة (الاجتهاد) ونزع الى ذلك . ومفيدا من ملاحظات محمد بن موسى ، يورد للقادري بعض الملاحظات عن معلمه (٦) ، الذي كان مجتهدا ، هو الآخر ، وترك سبعة مؤلفات تحمل اسمه ، وتوفي في مكة في عام ١١٠٩ هـ / ١٦٩٨ م . عـن

خمسة وستين عاما . وبشهرته يشهد اقتباس القادري أحد الأشعار التي كتبها هو « في تلك الربوع » ، ناهيك عن المؤلفات المنسوبة اليه حقا .

وليس ثمة في المصادر الأوربية معطيات عن الشيخ صالح اليمني هذا، كما لايمكن ان توجد في المجموعة البيبليوغرافية الشهيرة لحاج خليفة (المتوفى عام ١٦٥٨)(٧) . ومن مؤلفات الشيخ صالح اليمني ، التي يذكرها القادري ، مخطوطة واحدة فقط أدرجت في كتاب بروكلمان الشامل ، وتوجد ، في الوقت الحاضر ، في مكتبة برلين (٨) . ان عنوانها ، الذي يتفق مع ما يورده القادري ، هو « المنار في المختار من جواهر البحر الزخار » وهي تمثل تعليقا على مقتبسات من المجموعة الكبيرة لقواعد الفقه ، التي ألفها أحد الأئمة الزيديين في صنعاء ، احمد بن يحيى بن المرتع (توفي عام ٨٤٠ هـ / ١٤٣٧ م) ، تحت عنوان « البحر الزخار الجامع لمذاهب علماء الأمصار » (٩) . وستحين الفرصة للحكم على شهرة هذا المصنف في داغستان وحدها .

ان عدم توفر المعطيات عن الشيخ صالح اليمني في الأدبيات المعروفة حتى هذا الوقت يحملنا ، منطقيا ، بالدرجة الاولى ، على توجيه المساعي في البحث والتنقيب الى ميدان الكتابة اليمنية المحلية . ووفقا لصدفة سعيدة ، فان أحد المصادر ليس فقط يؤكد ، على نحو غاية في الجلاء وبأوفى التفاصيل ما أفاد به القادري ، بل ويورد ، أيضا ، جملة من المعطيات الطريفة ، التي توضح وتشرح ، بشكل رائع ، علاقة داغستان باليمن في مدى نصف قرن على الأقل .

وفي عام ١٣٤٨ هجرية (١٩٢٩ ـ ١٩٣٠ م) أصدر في القاهرة معجم بيبليوغرافي للاعلام بعد القرن السابع الهجري عنوانه «البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع » ، الذي صنفه العالم اليمني محمد بن علي الشوكاني

(١١٧٣ـ١٢٥٠ هـ) (١٧٦٠ـ١٨٣٤ م) (١٠) . ومن الطبيعي ان تتغلب في المعجم تراجم الاشخاص المرتبطين باليمن ، حيث نجد بينها فصلا مكرسا للشيخ موضوع بحثنا (القسم الاول ، ص ٢٨٨ـ٢٩٢) ، وتتسم ترجمته بطابع ، غير تقليدي قطعا ، للشرح الموجز (١١) ، وذلك لأن شخصية صالح اليمني تنطلق هنا على نحو أروع مما يمكن تصوره استنادا الى ملاحظات القادري المقتضبة .

« ان صالح بن مهدي بن علي .. المقبلي ، ثم الصنعاني ، فالمكي ، قد ولد في عام ١٠٤٧ هـ / ١٦٣٧ م ، في قرية (المقبـــل) من منطقـــة (كوكبان) (١٢) . وقد تلقى العلم على جملة من علماء اليمن البارزيـن ، الذين كان بينهم العلامة محمد بن ابراهيم بن المفضل (١٣) . وكان كل يوم يفد اليه ، للقراءة على يديه ، قادما من مدينة صولاق(١٤) وشيبام (١٥) . وقد درس عليه وأفاد منه فائدة جلى . وارتحل ، بعد ذلك ، الى صنعاء . وكان النقاش المثير يعلو لغطه بينه وبين علمائه ، وكان نقاشا حاميا يتطلب البراهين ، ولا يأبه بالتقاليد . ثم انتقل الى مكة ، حيث كابد شتى المحن ، وظل هناك الى ان وافاه أجله عام ١١٠٨ هـ (١٦٩٦ م)(١٦) . وقد أثبـت تاريخ ميلاده ، كما تذكرته ، وفقا لكتبه ، حيث تذكر المعطيات التى تتحدث عن ذلك . وكان هو من عداد اولئك الذين تميزوا في كل علم يتعلـــق « بالكتاب » والسنة ، وسبر غور المعرفة الدقيقة في كلا « الأقنومين »(١٧). وفي اللغة العربية ، والبيان ، والحديث ، وبرز فيها جميعا . وكانت لديه مصنفات حازت الرضا ، وكانت كلها أثيرة لدى العلماء ، الذين كانـوا يخفون اليها ويستهدون بأدلتها . انه مستحق لهذا ، ففي عباراته القوة ، والفصاحة ، والسلاسة ، وكانت الأسماع تتطامن اليها ، والقلـــوب تستمرئها . ان كلماته تبلغ الألباب ، نافذة لاتترك أحدا على رأيه عندمـا

يعكف عليها . وحين كان يجد الكلمات متناقضة ، فانه كان يميط لثامها ، ويوجزها بعبارة مفهومة مستساغة . وغالبا ماكان ينفض من المعتزلة(١٩)، (ص ٢٨٦) ، في بعض قضايا العقيدة ، ومن الاشاعرة في بعض آخر ، ومن المتصوفة في كثير من المسائل ، ومن الفقهاء في كثير من استنتاجاتهم ، ومن أهل الحديث لبعض اسرافهم . ولم يكن يكترث ، في المحاججة ، بمن يخاصم ، مهما كان مقامه . وقد أشتهر ، من بين مؤلفاته البارزة ، كتاب (الحاشية) ، وهو تعليق كبير على متن « البحر الزخار » للامام المهدي ، وقد أسمي « المنار » ، وسلك فيه سبيل التجرد والانصاف . ومع كل هذا، كان هو انسانا يخطيء ويصيب ، لكنه كان يتحدد بالحجة ، وليس بالكلام والتقولات . من هو على هذه الحال فهو مجتهد ، واذا ما بلغ المراد فأنه يكافأ مرتين ، أما اذا أخطأ ـ فانه يكافأ مرة واحدة . ومن مؤلفاته « العلم الشامخ »(٢٠) ، الذى اعترض فيه على بعض المتزمتين والمتصوفة (٢١) ، ومن مؤلفاته في الأصول ـ « نجاح الطالب على مختصر ابن حاجب » (٢٢) ، الذي صنعه حاشية لهذا الأثر ، ذاكرا فيه المسائل المختارة في الاصول ، ومنها أيضا « الأتحاف لطلبة الكشاف » ، الذي انتقد فيه الزمخشرى في كثير من اجتهاداته (٢٣) ، وذكر ماكان وجيها في رأيه . وفي عدادها تدخل أيضا « الارواح النوافح » و « الأبحاث المسددة » (٢٤) ، التي جمع فيها آراءه واجتهاداته في الأحاديث والفقه والاصول ..

« لقد ألزم نفسه بالنقاش النقدي والاستقلال وليس الاعتماد على تقاليد اهل العلم في كافة المجالات . وحين نزل مكة ، فان عالمها البرزنجي محمد بن عبدالرسول المدني (٢٥) تعرف على مؤلفه « العلم الشامخ في رد الآباء والمشايخ » (٢٦) ، وكتب رده عليه . وقد عقب على ذلك بكتابه الذي دعاه « الأرواح النوافح » (ص ٢٩٠) ، وكان هذا سببا في ارفضاض علماء

مكة عنه ، فقد نسبوا نظراته الى الزندقة (٢٧) بسبب التنصل من التقاليد ، والخروج على السنف • وقد أفضوا بأمره الى سلطان تركيا • وبعث هذا بعضا من العلماء لاختباره • غير ان هؤلاء لم يجدوا فيه غير الخير ، وهكذا واصل المضي في طريقه الذي انتهجه ، وقد وافاه بعض الداغستانيين واستعاروا منه بعض مؤلفاته •• (ص ٢٩١) • وبصرف النظر عن سعة معطياته في العلوم ، الا انه لم يلق بالا الى أساليب الاختصاصيين في الحديث وعمل بمقتضى ماوجده هو نفسه صحيحا ، كما هو المتعارف عليه لدى عارفي « الأصول » • وبالرغم من أنه كان يورد الأحاديث من الكتب المعتمدة فقط ، كالمجموعات الاساسية ومتعلقاتها ، الا أنه حين كان يعثر على الحديث الذي يورد بسبل مختلفة لاتقوى على الارتفاع الى درجة المقبولية في عرف الآخرين ، فانه مع ذلك كان لايهمل مثل هذا الحديث ، ويستهدي به • وكذلك فانه كان يتخذ الموقف ذاته تجاه مايتسم بالقصور الطفيف • ولذلك كله ينبغي على الدارس التثبت في كل هذه الحالات •

« وفي مؤلفاته (٢٨) يذكر أشعاره (٢٩) ، غير انها أدنى بالمقارنة مع نثره ، فنثره ذو مستوى رفيع • ومن أفضل أشعاره تلك التي يقول فيها : « فليلعن الله أولئك الذين يفصلون مابين « الأقارب » و « الصحابة »(٣٠) •

وعلى ذلك أجاب أحد جارودية اليمن (٣١) بأشعار شتمه فيها شتما بذيئا ••• هكذا يفعل اكثرية اليمنيين مع علمائهم ، ولعل ذلك لأن الله يريد ان يمنحهم الجائزة الأخيرة • لقد أنكر مايؤكده المتصوفة حول اكتشاف الأمور الخفية • مرضت لديه ، في مكة ابنته زينب ، فمضى الى الحرم • وأخبرته ، من وراء الحجرات ، بما يجري في الحرم • وقد حبسها عدة مرات ، ولكنها قالت له انها ترى كذا وكذا وكذا وكذا ، فانطلق الى الحرم (ص ٢٩٢) ، واقتنع ان ماقيل له حق • وهو يذكر في أحد مؤلفاته

انه قد تلقى العلم في مكة على الشيخ ابراهيم الكردي ، المذكور آنفا »(٣٢) .

وفي ضوء هذا الفصل من معجم السير للشوكاني ، فان خبر حسن القادري يكتسب أهمية بالغة . فهو يدعم بمصدر مستقل عنه ، بالغ الدقة ، كما ان صورة الشيخ صالح اليمني ، الملهم الأول للعلوم الدينيـــة في داغستان ، تتلقى اضاءة اكثر تحديدا . ويتضح انه ، بالفعل ، يتميز ، اضافة الى الصحة البالغة ، باستقلالية الدرس ، التي تضعه ، أحيانا ، على حافة الكفر والتجديف ، في عيون السلفيين المتزمتين . ولكن ، بالطبـع ، يكتسب أهمية استثنائية بالنسبة لموضوع بحثنا ، ذكر هذا الكاتب اليمني لصلة الشيخ صالح بالداغستانيين ، كما ان ظهور هذا الخبر في مصدريـن لايعتمد أحدهما على الآخر ، اطلاقا ، يجعل ذات الحقيقة غير مشكوك فيها .

ان مغزى ذلك المقتطف لاينتهي بهذا : انه يسمح لنا بالمضي شوطـا أعمق ، والتأكيد بأن هذه العلاقة لم تكن مشهدا عارضا ، وانما وضعـت الأساس لتقاليد شهيرة ستعمر ، كما سنرى ، قرنين من الزمان . ففي أثر الذكر المقتضب لعلاقة الشيخ صالح اليمني بداغستان ، فان الشوكـاني يستطرد ، بعض الشيء ، فيقدم قصة من حياته الخاصة :

« لقد قدم أحد علماء هذه البلاد الى صنعاء ، وكان عارفا بميادين العلم المختلفة . وقد التقيته في مدرسة الامام شرف الدين في صنعاء ، وسألته عن أسباب ارتحاله من بلده : ألم يكن ذلك لاجل تنفيذ واجب الحج . فأجابني بلسان غاية في الفصاحة والذلاقة ، انه لم يكن متطوعا ، وانما ذهب للبحث عن « البحر الزخار » للامام المهدي احمد بن يحيى ، وذلك لأنه ثمة حاشيه « منار » المقبلي . ان أكابر علماء داغستان مناصرون متحمسون لدراستها ، أما هي فوراء منطقة الروم على مسافة شهور ، كما أخبرني هو عن ذلك . وقال انه عند قراءة هؤلاء العلماء لها تجلت لهـــم غير واضحة بعض

استقصاءاتها ، ذلك انها متعلقة بالكتاب الذي تفسره هي ، أي كتاب « البحر » · وها انه قد تهيأ للبحث عن مخطوطة « البحر » · وقد وصل مكة ، وسأل عن (الحاشية) ، ولكن لم يكن لدى أحد علم بها · والتقى هناك بالسيد العلامة ابراهيم بن محمد بن اسماعيل الأمير (٣٣) الذي أخبره بان كتاب « البحر » موجود في صنعاء لدى كثير من العلماء · وختم كلامه بالقول : « ولذلك ، فاني جئت الى هنا » ، وفي يوم آخر رأيته جالسا في المدرسة ، عاكفا على مخطوطة « البحر » يقرؤها قراءة الراغب الملتاع ، وكان مسرورا بذلك غاية السرور · ولم أر ضريبا له في القدرة على التعبير الجيد ، والتكلم بلغة طلقة ، وتجنب الابتذال والسوقية في المناقشة ، والتحدث بنطق فاخر ، وعند سماع كلماته تملكني شعور بالغبطة والجذل، حتى لسرت رعدة في أوصالي · وعلى أية حال ، فانه ، غفر الله له ، توفي بعد قدومه الى صنعاء بوقت قصير ، ولم يقدر له الله العودة بالكتاب الموعود الى وطنه (٣٤) ·

ومن الصعب تقييم مغزى هذه القصة · فهي تتحدث ، قبل كل شيء عن الاهتمام المتواصل بكتاب الشيخ صالح اليمني في داغستان ، الذي من أجله لم يتردد العلماء في تجشم عناء السفر الشاق الى بلاد العرب ، مضحين، أحيانا ، بأرواحهم في سبيل ذلك وفضلا عن ذلك ، فان في غاية الاهمية شهادة اليمني المتحمسة للداغستاني في تملك ناصية اللغة العربية : فقد جاءت مخلصة ومقنعة على شفتي عالم لغته العربية هي اللغة الأم · ان الملاحظة عن غياب اللفظة السوقية مفهومة وتوضح أعجاب المؤلف الشديد : فقد أذهله ، بخاصة هو العربي الأصل الذي يستخدم اللهجة الدراجة ، عادة أن الداغستاني قد تحدث في حديثه اليومي بلغة عربية فصحى لاغبار عليها ·

ثمة امكانية التدقيق زمنيا في القصة موضوع نظرنا · لقد توفي مؤلف القاموس في عام ١٢٥٠ هـ (١٨٣٤) (٣٥) ، غير انه يذكر ابراهيم بن محمد، الذي دل الداغستاني ، في مكة ، على وجود المخطوطة في صنعاء · وقد توفي ابراهيم هذا في عام ١٣١٢ هـ (١٧٩٩ م) ، اما رحلة الداغستاني فينبغي ان تكون قد وقعت قبل هذا التاريخ · وعلى هذا المنوال ، فان مرحلتين مؤرختين زمنيا ـ هما تاريخ وفاة صالح اليمني ورحلة الداغستاني ـ تمنحاننا الحق في تثبيت أن تأثير الاول في داغستان قد بان في مدى القرن التاسع عشر كله ·

ان الصلة المباشرة بالاقطار العربية أمر جرى تأكيده ، في وقت متأخر ، طبعا · ففي سبعينات القرن التاسع عشر كان محمد طاهر القرحي، مؤلف المصنف الشهير في تاريخ شامل (الامام الثائر في العهد القيصري : شامل ـ المترجم) ، قد اتصل « بالعلماء المكيين والمصريين » بسبب الجدل الذي اشتد بين العلماء الداغستانيين ، في حوالي هذا الوقت ، حول (النظرة) (٣٦) ، كما كان (سنوك خورغورونه) قد رأى في مكة ، في الثمانينات ، بين العلماء المستوطنين هناك ، رعيلا كبيرا من الداغستانيين ، الذين كانوا يتمتعون بشهرة عريضة (٣٧) · ان كل هذا يشير ، بشيء من التحديد والتأكيد ، الى ان تأثير الادب والثقافة العربية قد رسخ في داغستان ليس فقط عن طريق تركيا ، كما يبدو هذا طبيعيا من الوهلة الاولى بمقدار ما نشأ بسبب الاختلاط المباشر ·

وعلى خلفية هذه الصلة الوثيقة بالاقطار العربية ، فان تأثير العالم اليمني ومؤلفاته ليس بالمشهد العارض الاتفاقي ، بل انه قد حافظ على قوته حتى في بداية القرن العشرين · وعن هذا يتحدث ، بمنتهي الجلاء ، الاستفسار الذي قام به حسن القادري لدى مواطن له يدعى حاج عليل

أفندي · وكان جواب حسن ، المثبت في ثاني محرم الحرام ١٣٢٣ هـ (٩ آذار ١٩٠٥) ، يحفل بأهمية ليس أقل من أهمية المواد المذكورة عن صالح اليمني · كتب حسن :

« عن كلماتكم أجيب :

ـــ « ما هو وضع الشيخ العلامة صالح اليمني ؟ أمجتهد أم مقلد للمجتهد ؟ (٣٨) فاذا كان مجتهدا فأي مجتهد هو : أهو مجتهد مطلق الصلاحية أم انه مجتهد في حدود النظام أو الفتوى ؟ وكيف يتفق هذا مع كلمات العلماء الفضلاء عن توقف الاجتهاد بعد أربعمائة سنة من الهجرة ؟ ثم هل يسمح بتقليده في تفاصيل أمور الشريعة في الحياة أم لا ؟

ـــ « وها هو الجواب : ان أيقاف الاجتهاد بعد الزمن المذكور رأي غير مرجح ، كما يعرف السائل ذلك طبقا للتعبير التالي للتعليق على « جمع الجوامع » (٣٩) ـ « من الممكن غياب المجتهد لوقت محدد ، أي انه لايبقي منه شيء من الاجتهاد » وذلك بمناقضة الحنابلة ، الذين لايسمحون اطلاقا بغيابه ، وكذلك ابن دقيق (٤٠) ، الذي لايسمح بامكانية غيابه مادام الوقت لم يغد مهددا ، والأصول لم تتزعزع بعد · فاذ ما أنذر الوقت بأمائر قيام الساعة الرهيبة ، كطلوع الشمس من الغرب وما الى ذلك ، فان غيابه ممكن في مثل هذا الوقت · وانه لمن الافضل ، حيثما تسمح الامكانية ، أعتبار حضوره غير محدد ، ولكن يقال انه يقع مثل هذا ·

« ان بلوغ انسان معين درجة الاجتهاد المطلق او الاجتهاد المحدود بحدود يثبت وفقا لشهادة عالمين معتمدين كاملي الاهلية ، خبيرين واسعي الاطلاع على وضعه ، أو وفقا لأيما شهادة اخرى بشرط تواتر الانتشار والشيوع الخ ، وقد ثبت هذا في مكان مناسب · ان الشيخ المذكور ـ تغمده الله برحمته ـ قد غادرنا الى الدار الآخرة ، حيث وافاه أجله ، في مكة

المكرمة ، في بداية القرن الثاني عشر الهجري ، وقد انتشرت في كل مكان في داغستان الاخبار عنه طبقا لرواية شيخ مشايخنا العلامة الحاج محمد افندي ابن موسى وأضرابه من الذين قدر لهم اللقاء بالشيخ صالح هناك • بل لقد حصلوا على بعض من مؤلفاته ، التي اتضح منها ادعاؤه بالاجتهاد المطلق ، كما تشهد على ذلك كلماته : « لقد رفضت اتباع التقولات طوال حياتي ، وقدمت الكتاب « على الصحابة » ، فبالنسبة لي فان المختار في السنة - فليباركها الله - هو الذي يشفي غليلي » •

« وفي احدى أسانيد حكاياته وجدت ان السلطان قد بعث الى مكة العلماء الفضلاء من المذاهب الأربعة لمحاججة الشيخ صالح وتحري أمره • وقد وجدوا في شخصه عالما لاحد لعلمه ، ووجدوا ان أقواله لاتعدو حدود المذاهب الأربعة ، وهكذا فانهم اتفقوا على تسمية مذهبه باسم « حاشمال » لتبيين أنه مؤلف من المذاهب الاربعة : الشافعية ، والحنفية ، والمالكية ، والحنبلية الخ • على أني لا أعتقد انه مؤلف منها ، اذ كيف يمكن ان يكون ذلك حين قد أعلن هو ، جهارا ، في بعض مؤلفاته ، الآراء التي تتخطى حدود كافة المذاهب ••• واذا ماطاوعنا هذه الفرضيات فانه يمكن التأكيد على ان هذا العالم مجتهد فاضل ، وان مذهبه مع مستلزماته وشرائطه مبرر في قضايا الاحوال الشخصية ، ولكن ليس في دور القضاء والفتوى في مناطقنا ، وذلك لان سكان هذه المناطق يبدون كما لو أنهم ألزموا قضاتهم ومفتيهم بأتباع مذاهب زعمائهم ، الذين يعترفون بهم ، كالامام الشافعي والامام الحنفي ، فليتغمدهما الله برحمته •• والله الموفق • والسلام !

كتبه في ثاني محرم الحرام ١٣٢٣ هجرية ، في « القادره »

الأحقر الى ربه حسن القادري (٤١)

وفيما عدا التكرار الجزئي للحقائق التي عرفنا ، فان هذا الجواب

مهم كمؤشر على الاهتمام الحي بشخصية صالح اليمني في داغستان ، حتى في بداية القرن العشرين ، في عشية الحرب العالمية والثورة ·

ان موضوعة « داغستان واليمن » موضوعة تحتمل المتابعة والرصد منذ نهاية القرن السابع عشر حتى أيامنا هذه · انها تؤكد ، مرة اخرى ، ضرورة ايلاء الاهتمام الكبير الى شواهد الثقافة العربية في القفقاس الشمالي ·

هوامش المؤلف :

(1) W. Barthold, Dagestan, El , I, p. 929.

(١) حسن القادري ، آثار داغستان ، باكو ، ١٩٠٣ ، ص ٢٣٢ · في الترجمة الروسية (مجموعة مواد لوصف مواضع وقبائل القفقاس ، النشرة ٤٦ ، محج قلعة ، ١٩٢٩ ، ص ١٥٦ ·
ان هذا المكان لم يورد بتمام الدقة ، انظر :
W. Barthold, Dagestan, El. , I p. 929.

(٣) وفقا لمعطيات أ · سعيدوف : ولد في (١٥) رمضان ١٠٤٢ (٢٧ آذار ١٦٣٣) ، وتوفي في رمضان ١١٢٩ (آب ١٧١٧) ·

(٤) انظر :
Al - Ashari, Ei I p. 499;
Ergänzungsband , p. 36.

(٥) مؤسس احد المذاهب الدينية الاربعة للشريعة الاسلامية (١٥٠ـ٢٠٤ هـ) - (٧٦٧ - ٨٢٠ م) · انظر :
W. Heffening, Al-Shafi'i, El, IV, p. 271-273.

(٦) حسن القادري ، دليل المؤلفات ، ص ٢٣٣ ، الترجمة الروسية ، ص ١٥٧ (في ترجمة عناوين الكتب والمقتبسات العربية كثير من التشويهات) ·

(٧) من أجل الاطلاع على لمحة وجيزة عنه ، بصدد اصدار أحد مؤلفاته في القاهرة ، انظر :
Sarkis. Dictionnaire encyclopedique de Bibliographie Arabe, X, Cairo, 1930, p. 1772; C. Brockelmann. GAL, CB II, p. 562,13.

(٨) بدلا من العدد ٤٩١١ ·

(C. Brockelmann. GAL, II, p. 187 (b) , IIa)

اقرأ العدد ٤٩١٨ ، انظر :

(Ahlwardt, IV, p. 314)

وتوجد ثمة مخطوطتان أخريان في المتحف البريطاني :

(Riev. Supplement to the Catalogue of the Arabic Manuscrits in the British Museum. London, 1894, pp. 245-246, No, 409)

وفي المجموعة السابقة لـ (لاندبرغ) :

(C. Landberg. Catalogue des manuscrits arabes provenant d'vne bibliothéque privee á El - Medina appartenant á la maison E. J. Brill, Leiden, 1883, No, 588) .

انظر الآن :

C. Brockelmann. GAL, SB II, p. 246

حيث يشار أيضا الى مخطوطة في ميلانو ·

(٩) انظر :

C. Brockelmann. GAL, II, p. 187, No, 6, II.

(١٠) ان المعلومات المتعلقة بترجمة حياة المؤلف تتوفر في معجم آخر ذي أصل يمني أيضا ، مؤلف من قبل عالم معاصر هو محمد بن يحيى زباره الصغاني : (نيل الأوطار من تراجم رجال اليمن في القرن السادس عشر ، الجزء الثاني ، القاهرة ، ١٣٥٠ ، ص ٢٩٧-٣٠٢ ، الرقم ٤٧٤) ·

(١١) لقد حذفت في الترجمة كثير من التفاصيل غير المهمة بالنسبة للموضوعة الحالية ، او لسيرة حياة الشيخ صالح اليمني ، وقد أشير الى المحذوف بالنقاط ··

(١٢) للاطلاع على أوصاف اقليم ومدينة كوكبان ، التي تقع الى الشمال من صنعاء ، انظر :

A. Grohmann, Kawkaban, El, II pp. 890-892.

(١٣) انظر فيما يتعلق به (١٠٢٢-١٠٨٥ / ١٦١٣-١٦٧٤) :

C. Brockelmann, GAL, II, pp. 402-403, No, 10 .

(١٤) أقدم مثل هذه الحركة على اساس المعجم الجغرافي لياقوت : (ياقوت، المعجم ، الجزء الاول ، ص ٩٣١) الذي يذكر مع هذا الاسم قلعة واحدة في اليمن ·

(١٥) من بعض المدن التي تحمل مثل هذا الاسم ، يؤخذ بنظر الاعتبار شيبام كوكبان ، والتي انظر ، بخصوصها :

A. Grohmann, Shibam, El, IV, p. 385.

(١٦) ان التواريخ تفترق ، بعض الشيء ، عن تلك التي يفيد بها القادري ، فالافضل ، على الأرجح ، ان نقدم مايفيد به المصدر اليمني ٠

(١٧) يعني بذلك علمان أساسيان : « أصول الدين » و « أصول الفقه » ، وللتفاصيل انظر :

J. Schacht. Usúl, El· IV, pp. 1142-1146.

(١٨) هما قسما البلاغة ٠

(١٩) اسم مدرسة فقهية متنفذة ، كانت قد وضعت الاساس للجدل في الاسلام ، انظر :

H. S. Nyberg, Al-Mu, tazila, El III, pp. 850-856.

(٢٠) ان اكثرية اسماء مؤلفاته مشوهة في ترجمة القادري ، ولن أتحفظ ، بهذا الخصوص ، كل مرة ٠ ان كتاب « العلم » المذكور قد أصدر في القاهرة مع ما اسمي ، في لاحق ، ب « الأرواح » ، بتحرير رشيد رضا ، في ١٩١٣ ٠

(J. Sarkis , Dictionnaire encyclopédique de bibliographie arabe, Caire , 1929 p. 1772 ; J . Sarkis , Catalogue , Janvier, 1937, p. 81.

(٢١) يورد المؤلف العنوان الأتم لهذا المصنف ، في لاحق ٠

(٢٢) ان « مختصر » ابن حاجب (المتوفى في ٦٤٦هـ /١٢٤٨م) – الذي كتبه المؤلف نفسه هو موجز لمجموعة أسس نظام الفقه لدى المالكية ، انظر :

C. Brockelmann, KAL, I, p. 306; M. Ben Cheneb Ibn al - Hádjib, El , II, p. 405.

توجد مخطوطتان لمؤلف صالح هذا في أوربا اشير اليهما الآن ٠

C. Brockelmann. GAL, SBI , p. 538 f.

رقم المخطوطة الموجودة في مجموعة ، لاندبرغ – ٦٥١ ، وليس ٦٨١ ، كما مشار اليه لدى بروكلمان) ٠

(٢٣) المقصود هو التعليق الشهير على القرآن (ويقصد بذلك التفسير – المترجم) ، والذي كتبه الزمخشري تحت عنوان « الكشاف عن حقائق التنزيل » (المتوفى في عام ٥٣٨ هـ / ١١١٤ م) ، الذي يعتبر مشبعا بالاتجاهات المعتزلية ٠ انظر :

C. Brockelmann, Al - Zamakhshari, El, IV, p. 1305.

(٢٤) أن اسم هذا المؤلف لدى القادري (دليل المؤلفات ، ص ٢٣٢ ، الترجمة الروسيه ، ص ١٥٧) يورد بشكل أكثر اكتمالا : « الابحاث المستردة من الفنون المتعددة » ، ويسمى هذا الاسم بالكلمات اللاحقة للشوكاني. وقد أصدر المؤلف الاول في القاهرة عام ١٣٢٨ ، انظر :

C. Brockelmann., GAL, SBII, p. 562, No, 13,3.

اما مخطوطتا المؤلف الثاني فتعد ذات المصدر ، العدد ١٣ .

(٢٥) على الارجح ، يذكر بروكلمان مؤلفه وحده :

(C. Brockelmann. GAL, II, p. 443, 3-5)

الذي يورد تاريخي ميلاده ووفاتـــه (١٠٤٠-١١٠٣ هـ / ١٦٣٠-١٦٩١ م) .

(٢٦) انظر هذا الاسم لدى :

C . Brockelmann, GAL, SB II , p. 562. No 13,2.

(٢٧) المصطلح العام الذي يضم مختلف ظلال أفكار التحرر ابتداء مـــن عشق الحرية الى البرطقة ، انظر : (لويس ماسينيون ، الزنديق :

L. Massignon, Zindik, EI, IV, pp. 1329-1330.

(٢٨) لايذكر الشوكاني أحد المؤلفات الذي يورد القـــادري عنوانه في دليل المؤلفـــــات ، صـــ ٢٣٣ ، الترجـــــمة الروسية ، ص ١٥٧) ، وهو « حب الغمام على بلوغ المرام » . وأنا أقرأ الكلمـــة كالتالي : الغرام بدلا من الغمام ، وعلى الأرجح يمثل هذا الكتـــاب تعليقا على مجموعة أحاديث ابن حجرة العسقلاني ، (توفي في ٨٥٢هـ/ ١١٤٩م) ،تحت عنوان « بلوغ المرام من أدلات ادلات الأحكام » :

C. Brockelmann, GAL, II p. 49,19).

(٢٩) يورد القادري (دليل المؤلفات ، ص ٢٣٣) بداية أحد الاشـــعار المكتوبة « في هذه الربوع » (في داغستان) . أما الترجمة الروســـية (ص ١٥٧) ، فان بيت الشعر الأول يشوه تماما الفكرة اللازمة مـن اجل وصف شخصية صالح اليمني . اذ بدلا مما جاء هكذا : « لقـد تجنبت ، طوال حياتي ، التعصب الطائفي ، وكتبت كتابا للأصدقاء » ينبغي ان يثبت مايلي : « لقد كففت عن اتباع أي من المذاهب (الاربعة المتبعة في الاسلام) وفضلت « الكتاب » (المقصود : القرآن) على التحزبات (التفسيرات المختلفة . ان هذا الشعر يؤكد ، بجلاء ، على طموحه الى الاجتهاد المستقل ، ورفض الخضوع للتقاليـــد ، حتى للمذاهب الأربعة المشهورة .

(٣٠) بـ « الأقربين » يقصد (آل البيت) : أبناء ابنته فاطمة ، التي يختلف الموقف منهم ، نسبيا ، عن الموقف تجاه « الصحابة » في مذاهـــب الاسلام المختلفة .

(٣١) الجارودينية – احدى المجموعات المتطرفة للطائفة الشيعية للزيديين ، السائدة في اليمن ، وقد تلقت اسمها من المؤسس أبو جارود · انظر :
R. Strothmann, AL-Zaidiya, El , IV, p. 1295 .

(٣٢) لقد أدخل الشوكاني ، فعلا ، اللمحة عن ترجمته حياته (١٠٢٥–١١٠١ هـ //١٦١٦ – ١٦٩٠ م) ، في بداية معجمه للسير (« البدر الطالع » ، مج ١ ، ص ١١–١٢) ·

(٣٣) ان ترجمة الحياة المفصلة لهذا العالم ، الذي كان أيضا وليد صنعاء ، تحتل مكانها لدى محمد بن يحيى زباره : « نيل الأوطار » ، ج ١ ، القاهرة ، ١٣٤٨ هـ ص ٢٨–٣٤ ، العدد ١٠ ، اما المعطيات الاوجز فنجدها لدى الشوكاني (دليل المؤلفات ، ج ٢ ، ص ٤٢٢–٤٢٣ ، في السيرة الذاتية لابنه علي بن ابراهيم · ان تاريخي الحياة اللذين يشير كلاهما اليها ، هما : (١١٤١–١٢١٣ هـ /١٧٢٩–١٧٩٩ م) ·

(٣٤) الشوكاني ، البدر الطالع ، ج ١ ، ص ٢٩٠ ·

(٣٥) محمد بن يحيى زباره ، « نيل الأوطار » ج ٢ ، ص ٣٠٢ ·

(٣٦) مجموعة معلومات عن جبليي القفقاس ، النشرة ٥ ، تفليس ، ١٨٧١ ، القسم ٤ ، « السجل الجبلي » ، ص ٤٠ ، اضافة ·

(37) G. Snouck Hurgronje . Mekka· II , Haag , 1889, pp. 255-256 : " Aus Daghustan Stammen einge von den geschätztesten Lehrkräften des Haram. Kurz vor meiner Gelehrsamkeit von vielen Kollegen über die des Sejjid Dahlan gesteut wurde. Sein Sohn Muhammed machte dem Vater Ehre und gehörte nach der allgemeinen Ansicht zu den sechs besten Quranrecitatoren Mekka's "

(لترجمة الروسية ، انظر : ف · بارتولد ، العلم الاسلامي في مكة · مستل مستقل مأخوذ من « الكشوفات التركمانية » للعامين ١٨٩٥ و ١٨٩٦ ، ص ٩٤)· عن زيني داحلان ، الذي يعتبر أحد اكبر علماء هذا العصر ، انظر :
C. Brockelmann. GAL, II pp. 499-500
مع المصادر المشار اليها آنفا ·

(٣٨) بخصوص كل المصطلحات والتصورات المرتبطة بها ، انظر :
آ · أي · شميدت ، عبدالوهاب الشعراني وكتابه « اللآلىء المنثورة » ١٩١٤ ، سانت بطرسبورغ ، ص ١٠٩–١١٠ ·

(٣٩) الحديث يدور هنا ، على الأرجح ، حول مؤلف تاج الدين السبكي في

مبادىء الفقه ، انظر :

C. Brockelmann, GAL, II, p. 89.

(٤٠) المقصود هنا : محمد بن علي بن وهب دقيق العيد المنفلوطي ، كاتب القرن الثالث عشر ، انظر :

(C. Brockelmann, GAL, II, p. 63, No, 1)

(٤١) حسن القادري ـ جراب المنون ، تميزخان شـــوره ، ١٩١٢ ، ص ٢٧٩ـ٢٨١ .